الفصل الثالث

الحجاج والياً

- ولايته للحرمين الشريفين
- ولايته للعراق
- الحجاج والصحابى أنس بن مالك

ولايته للحرمين الشريفين

قتــل عبد الله بن الزبير وبمقتلــه تحولت مكة لمأتم كبير وذرفت النساء الدموع عليه فبلغ ذلك الحجاج فوقف خطيباً فى الناس وقال:

(يا أهل مكة .. بلغنى إكباركم واســتعظامكم قتل ابن الزبير .. فــإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب فى الدنيا ونازع الخلافة أهلهــا فخلع طاعة الله وألحد فى حرم الله .. ولو كانت مكة شــيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمــة الجنة وقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأســجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء فلما عصاه أخرجــه من الجنة وأهبطــه إلى الأرض .. وآدم أكرم على الله من بن الزبير وإن ابن الزبير غَيّرَ كتاب الله)

فقال له عبد الله بن عمر :

(لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت .. والله إن ابن الزبير لم يغير كتاب الله .. بل كان قواماً به صواماً عاملاً بالحق)

فســكت عنه الحجــاج ولم يراجعه إلا أنه قام بصلب جســد ابن الزبير قرب جبل يسمى بجبل الحجون وأرسل رأسه ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن حزم إلى عبد الملك بن مروان فســر بمقتل بن الزبير وكافىء الرسول بخمسمائة دينار[1] ..

(١) البداية والنهاية – الجزء الثامن – ص ٣٣٢

الحجــاج صلب ابن الزبــير رغبة منه فى إظهار ســيطرته على مقاليــد الأمــور وأن ما حدث له إنما كان من عمــل يده إلا أن الناس كانت تمر على الجسد فتترحم عليه وتبكى وممن مروا عليه عبد الله بن عمر فكان يقول :

(الســلام عليك أبا خُبيب – وكررها ثلاثــاً – أما والله لقد كنت أنهــاك عن هذا – وكررها ثلاثــاً – أما والله إن كنت ما علمتُ صواماً قواماً وصولاً للرحم .. أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير)

فبلــغ ذلك الحجاج فأمر بدفن ابن الزبير فدفن فى الحجون وقيل أن الحجاج ألقاه فــى مقابر اليهود .. والحجاج بكل هذا كان يرغب فى إظهار قوته وتمكنه وإظهار أن الأمر عاد لبنى أمية إلا أن أفعاله غالبــا ما كانت ترتد عليه .. وقد روى أنه اســتدعى أسماء بنت أبى بكر فأبت أن تأتيه فأعاد إليها الرسول ليقول لها :

(لتأتينى أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك)[1]

فرفضت مرة أخرى وقالت :

(والله لا آتيه حتى يبعث إلىّ من يسحبنى بقرونى)

(١) أى يجرها من ضفائرها

فقال الحجاج :

(أرونى سِبْتِيتَى)[1]

فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذف[2] حتى دخل عليها فقال :

(كيف رأيتينى صنعت بعدو الله ؟)[3]

قالت :

(رأيتك فسدت عليه دنياه وأفسدت عليك آخرتك .. بلغنى أنك تقول يا ابن ذات النطاقين .. أنا والله ذات النطاقين .. أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبى بكر وأما الآخر فنطاق المرأة التى لا تستغنى عنه .. أما إن رسول الله حدثنا أن فى ثقيف كذاباً ومُبيراً فأما الكذاب فرأيناه[4] وأما المبير فلا أخالك[5] إلا إياه)[6]

* * *

(١) السِبتِية هى نعل مدبوغ من الجلد والمراد إئتونى بنَعلىّ

(٢) يسرع وقيل يتبختر

(٣) يقصد ابنها عبد الله بن الزبير

(٤) تعنى المختار بن عبيد الله الثقفى

(٥) أظنك

(٦) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ٣٤١

فى ظل نجاحــه فى القضاء على عبد الله ابــن الزبير كان طبيعياً أن يكافــى عبد الملك بــن مروان الحجاج بولاية مكــة فجعله عليها لشــهور قليلة قبل أن يعزل طارق بن عمرو عن ولاية المدينة المنورة ويضمها إلى الحجاج فكانت مكــة والمدينة والطائف والحجاز تحت قيادة الحجاج لقرابة العام ونصف العام ..

وفى أمر ولاية الحجــاج لمكة والمدينة فقد وردت بعض الروايات التى قالت بأنه أســاء معاملة الصحابة الكــرام وكيف أنه ختم على أيدى وأعناق بعضهم لإذلالهم ولأمانة الطرح فإن أســانيد بعض تلك الروايات منقطع أو بعض من رووها فيهم ضعف وقد نقلت أغلب تلك الروايــات من الواقدى وهو لا يعد مصــدراً موثوقاً ويُضعفه كثير من أصحاب الرأى فيقول عنه الإمام الذهبى رحمه الله :

(وقد تقرر أن الواقدى ضعيف يحتاج إليه فى الغزوات والتاريخ ونورد آثــاره من غير احتجاج .. إذ قد انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس بحجة وأن حديثه فى عداد الواهى رحمه الله)[1]

و عليه فإنى لا أجزم بصحة الروايات ولا أنكرها أيضاً فقد تكون حدثت بالفعل وهى إن حدثت فهى توافق المؤكد والمعلوم عن الحجاج وجرأته على الدماء ..

(١) سير أعلام النبلاء ٤٦٩/٩

وللحجـــاج مواقف مع بعض الصحابة أثنـــاء ولايته لمكة والمدينة مثل ســـهل بن ســـعد وجابر بن عبد الله وهذا بخلاف سبه للصحابى عبـــد الله بن مســـعود فقد روى أن الحجاج بعث إلى ســـهل بن ســـعد الساعدى فقال له :

(ما لك لم تنصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؟)

فقال :

(قد فعلت)

فقـــال الحجاج كذبت ثم أمر بختمه فى عنقـــه .. وروى أيضاً أن جابـــر بن عبـــد الله أتى إلى الحجاج فلم يعطه يده للســـلام عليه فأمر الحجاج بختم يده .. أما عن كراهيته لعبد الله بن مســـعود رضى الله عنه فكان بسبب أن ابن مسعود قرأ القرآن بغير قراءة الخليفة عثمان بـــن عفان رغم أنه رجع إلى عثمان رضى الله عنه وأخذ موافقته عليها فكان هذا سبباً كافياً لكراهيته رغم أنه توفى قبل ولاية الحجاج لمكة بإثنان وأربعون عام وكان يقول فيه :

(ولا أجـــد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد[1] إلا ضربت عنقه .. ولأحُكّنها من المصحف ولو بضلع خنزير)

(١) إسم والدة عبد الله بن مسعود

وقد كان دائم الإســاءة إلى عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه وكان يقول فيه :

(عبد الله ابن مسعود رأس المنافقين .. لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه)[1]

و كان يقول ما يقول رغم أن عبد الله ابن مســعود هو من قال فيه رسول الله ﷺ :

(من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد)

و لكنــه كان دأب الحجــاج وتلــك كانت جرأته علــى كثير من الصحابة الكرام ..

* * *

تعامل مثل هذا – بفرض صحة الروايات – لم يكن ليستسيغه أهل الحرمين وقــد كان فيهما أصلح أهل الأرض ذلك الوقت فكان طبيعياً أن يتحينــوا الفرصة لكى يدفعوا الحجاج عــن ولاية الأمر فيهما ..

القصــة بدأت بعد أن تولى الحجاج الحرمــين فاختار إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقربه فى المنزلة وفى المقابل وبحكم واقع الظروف

(١) البداية والنهاية – الجزء التاسع – ص ١٢٨

فإن إبراهيم أراد أن يأمن شر الحجاج فتألفه فى الحديث وكان يعظمه ويجلــه وينزله منزلته وفى أحد المــرات خرج الحجاج إلى عبد الملك بن مروان زائراً واصطحب معه إبراهيم بن طلحة فلما دخل على عبد الملك بن مروان دخل وحده وترك إبراهيم بالباب فلم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال :

(قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له والله فيها نظيراً فى كمال المروءة والأدب والرئاســة والديانة والســتر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة و وجوب الحق .. إبراهيم بن طلحــة بن عبيد الله .. وقد أحضرته بابك ليســهل عليه إذنك وتلقاه ببشرك وتفعل ما يُفعل بمثله ممن كانت مذاهبه مثل مذاهبه)

فقال عبد الملك :

(ذكرتنــا حقاً واجباً ورحماً قريبــة .. يا غلام .. ائذن لإبراهيم بن طلحة)

فلما دخل عليه قربه حتى أجلسه على فراشه ثم قال له :

(يــا ابن طلحة .. إن أبا محمد أذكرنــا ما لم نزل نعرفك به من الفضــل والأدب وحســن المذهب مع قرابة الرحــم ووجوب الحق فلا تدعن حاجة فى خاص أمرك ولا عامّه إلا ذكرتها)

قال :

(يا أمير المؤمنين .. إن أولى الأمور أن تفتح بها الحوائج وترجى بهـا الزلف ما كان لله عز وجل رضى ولحـقّ نبيه ﷺ أداء ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة .. وإن عندى نصيحة لا أجد بداً من ذكرها ولا يكون البوح بها إلا وأنا خال فأخلنى ترد عليك نصيحتى)

قال :

(دون أبى محمد ؟!)

قال :

(نعم)

قال :

(قم يا حجاج)

فلما خرج قال :

(قل يا بن طلحة نصيحتك)

فقال :

(إنك عمدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالى المنتسبة الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ وأبناء الصحابة يسومهم الخسف ويقودهم العسف ويحكم فيهم بغير السنة ويطؤهم بطغام أهل الشام[1] ورعاع لا روية لهم فى إقامة حق ولا إزاحة باطل .. ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك وفيما بينك وبين رسول الله ﷺ يخلصك إذا جاثاك[2] للخصومة فى أمته ؟ .. أما والله لا تنجو إلا بحجة تضمن لك النجاة فابق على نفسك أو دع .. فقد قال رسول الله ﷺ : كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته)

فاستوى عبد الملك جالساً وكان متكئاً فقال :

(كذبت – لعمر الله – ومِنْت[3] ولؤمت[4] .. قد ظن بك الحجاج ما لم يجد فيك وربما ظن الخير لغير أهله .. قم فأنت الكاذب المائن[5])

(١) أى رعاعهم وحقراءهم

(٢) الجثو هو الجلوس على الركبة والمراد هنا الإختصام أمام الله

(٣) كذبت

(٤) المقصود تلاءمت من اللؤم فيما جئت به

(٥) الكاذب الحاسد

يقول إبراهيم :

(فقمت والله ما أبصر طريقاً فلما خلفت الستر لحقنى لاحق من قبله فقال للحاجب : احبس هذا الرجل وأدخل أبا محمد الحجاج .. فلبثت ملياً وأنا لا أشك أنهما فى أمرى ثم خرج الآذِن[1] فقال : قم يا ابن طلحة فادخل)

فلما كُشف لى الستر لقينى الحجاج وأنا داخل وهو خارج فاعتنقنى وقبل ما بين عينى ثم قال :

(إذا جزى الله المتآخين بفضل تواصلهما فجزاك الله أفضل ما جزى به أخاً .. فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك ولأعلين كعبك ولأُتْبِعَن الرجال غبار قدميك)

يقول إبراهيم :

(فقلت : يهزأ بى)

فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أجلسنى فى مجلسى الأول ثم قال :

(١) الحارس

(يا ابن طلحة .. لعل أحداً من الناس شاركك فى نصيحتك ؟)

قال :

(لا والله .. ولا أعلم أحداً كان أظهر عندى معروفاً ولا أوضح يداً من الحجاج ولو كنت محابياً أحداً بدينى لكان هو .. ولكنى آثرت الله عز وجل ورسوله ﷺ والمسلمين .. ولو أردت الدنيا لكان لى فى الحجاج أمل)

فقال :

(قد علمت ذلك .. وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما وأعلمته أنك استنزلتنى له عنهما استصغاراً ووليته العراقين[1] لما هناك من الأمور التى لا يرحضها[2] إلا مثله وأعلمته أنك استدعيتنى إلى التولية له عليهما استزادة له ليلزمه من ذمامك[3] ما يؤدى به عنى إليك أجر نصيحتك فاخرج معه فإنك غير ذام صحبته مع تقريظه[4] ويدك عنده)[5]

(١) يقصد عراق العرب وعراق العجم

(٢) الرحض هو الغسل والمراد يقدر عليها

(٣) عهدك وأمانك

(٤) مدحه إياك

(٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٤١ / ٤٢

ويتضح لنا هنا أن عبد الملك بن مروان استشف صدق نيه إبراهيم بن طلحة وكيف أنه ينصحه لله ولرسوله ويثبت منها أن الحجاج قد تجاوز كثيراً فى حق أهل الحرمين وهم من هم فقبل نصيحته بعد أن أخذه الغضب فى البداية ولم يكتفى بقبول نصيحته فقط وإنما أضاف عليها أن رفع مكانته عند الحجاج بأن ادعى أن إبراهيم هو من نصح عبد الملك بأن يولى الحجاج العراق إستعظاماً لقدراته الإدارية الفذة فيظل الحجاج حاملاً له إياها طوال عمره ..

* * *

على أى حال مرحلة ولاية الحجاج للحرمين لم تطل كثيراً وقد توفى بشر بن مروان والى العراق وشقيق عبد الملك ولعل شخصاً مثل الحجاج يستطيع أن يضبط أمور أهل العراق فالناس هناك لا تستقيم لوالى ولا تنزل على طاعته إلا قليلاً ..

كان هذا فى الماضى ..

الحجاج فى الطريق إليهم الآن ..

* * *

ولايته للعراق

أبرز مراحل حياة الحجاج .. عشــرون عامــاً من الحكم المتواصل للعــراق وما تلاها .. وإذا تحدثنا عــن حكم الحجاج للعراق فأول ما سيأتى على خاطرنا هو خطبته الشهيرة التى خطبها فى أهل الكوفة عاصمة العراق وقتها .. الحجاج بعد أن تســلم عهده على العراق من عبد الملك بن مروان أخذه وخرج فى جمع من إثنى عشر رجلاً فوصلوا إلى الكوفة صباح يوم جمعة فاغتسل وبدل ثيابه ولبس عمامة حمراء من صــوف وألقى عذبة العمامة[1] بين كتفيه ثم تقلد ســيفه وتنكب قوســه ودخل على الناس فى صحن المســجد ومشــى بينهم متبختراً حتى وصل المنبر فإذا بالناس بدأوا يتهامسون فيما بينهم .. بعضهم ظنه وأصحابه من الخوارج .. إلا أنه فى النهاية انتشــر بين الناس أنه أمير بنى أمية الجديد على العراق فتجمع له الناس ينتظرون أن يبدأ حديثه ..

* * *

أهــل الكوفة فى ذلك الزمان كانوا يحســنون الإهتمام بمظهرهم فكان الرجل منهم يلبس أفخر الثياب ويدخل المســجد وحوله عشرة أو عشــرون من مواليه فلما رأوا لباس الحجاج اســتهانوا به .. صعد الحجاج المنبر وســكت .. أطال الســكوت جداً إذا أردنا الدقة .. ضُج

(١) طرفها

الناس من سكوته وهموا أن يحصبوه[1] وكانوا معتادين على هذا مع أمراءهم وقد فعلوا هذا مع بشر بن مروان شقيق خليفتهم أفلا يفعلوه مع هذا الصامت ..

رجل إسمه محمد بن عمير تناول بعض الحصى فى يده ثم قال لرجل كان يجلس بجواره :

(هل لك أن أحصبه ؟)

فقال له :

(لا .. حتى أسمع كلامه)

ثم قال :

(لعن الله بنى أمية .. يستعملون علينا مثل هذا .. لقد ضيع العراق حين يكون مثل هذا أميراً عليه)

* * *

فى البداية كان الهرج شديداً .. ثم هدأ الأصوات .. ثم خفتت .. حتى ساد الصمت تماماً .. ذلك الرجل الصامت يلبس عمامة تغطى غالبية وجهه فلا يظهر منها إلا عيناه .. يجلس مسنداً ذقنه على إبهمه و واضعاً أصبعه السبابة على فمه .. ينظر يمنة ويسرة ثم .. ثم ماذا ؟! .. لا شيء يحدث .. الرجل لا يتحرك تقريباً .. ووسط

(١) يقذفوه بالحصى

كل تلك الأفكار التى تدور فى أذهان الناس يقف الحجاج فجأة كاشفاً عن وجهه صائحاً فيهم :

(أنا ابن جلا [١] وطلّاع الثنايا[٢] .. متى أضع العمامة تعرفونى)

ثم أكمل :

(أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود .. أما والله إنى لأحمل الشر بثقله وآحذوه بنعله وأجزيه بمثله .. والله يا أهل العراق إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها .. وإنى لصاحبها .. والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى قد شمرت عن ساقها تشميراً .. إنى والله يا أهل العراق ما أُغمز كتغماز التين [٣] ولا يُقَعْقَع لى بالشَنان[٤] ولقد فررت عن ذكاء وجريت إلى الغاية القصوى[٥])

---

(١) الجلا هو طلوع الصبح والمراد هنا أنه واضح وصريح

(٢) الثنايا جمع ثنيّة وهى الطريق فى الجبل والمراد هنا أنه شخص قوى خبر الحياة وعركها

(٣) تغماز التين هو الضغط عليه ليعرف إذا ما كان ناضج أم لا والمقصود هنا أنه رجلاً غليظاً لا يمكن الضغط عليه

(٤) الشَنَان جمع شَن وهو الجلد اليابس وكانوا يضعونه على مؤخرة الإبل والقعقعة هو تحريك هذا الجلد فتفزع منه الإبل وتسير حيثما أرادوا والمراد هنا أنه شخص لا يهاب شيئاً ولا يخشى أحداً

(٥) كناية عن تمام سنه وذكاءه

و قرأ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[1]

ثم قال :

(وأنتم أولئك وأشباه أولئك .. يا أهل العراق .. يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق .. والله إن كان أمركم ليهمنى قبل أن آتى إليكم ولقد كنت ادعوا الله أن يبتليكم بى .. ولقد سقط منى البارحة سوطى الذى أؤدبكم به فاتخذت هذا مكانه " وأشار إلى سيفه " .. والله لآخذن صغيركم بكبيركم .. وحركم بعبدكم .. ثم لأرصعنكم رَصْع[2] الحداد الحديدة والخباز العجينة)

ثم أكمل :

(إن أمير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته[3] فعجم[4] عيدانها فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فوجهنى إليكم ورمى بى فى

(١) النحل: ١١٢

(٢) ضرب

(٣) الكنانة هى جعبة الأسهم

(٤) عضها فاختبر قوتها

نحوركم .. فإنكم أهل بغى وخلاف وشقاق ونفاق فإنكم طالما أوضعتم فى الشر وسننتم سنن الغى .. فاستوثقوا واستقيموا .. فوالله لأذيقنكم الهـوان ولأمرينكم به حتى تـدروا .. ولألحونكم لحـو العود[١] .. ولأعصبنكم عصب السلمة[٢] حتى تذلوا .. ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[٣] حتى تـذروا العصيان وتنقـادوا .. ولأقرعنكم قرع المروة[٤] حتى تلينوا .. إنى والله ما أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت[٥] فإياى وهذه الجماعات فلا يركبن رجل إلا وحده .. أقسـم بالله لتقبلن على الإنصاف ولتدعن الإرجاف وقيلاً وقالاً وما تقول وما يقول وأخبرنى فلان[٦] أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً فى جسده .. فيم أنتم وذاك ؟ .. والله لتسـتقيمن على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضرباً يدع النساء أيَامَى[٧] والولدان يتامى حتى تذروا السُمهَى[٨] وتقلعوا عن ها وها ..

(١) لحو العود هو تقشير الشجر ولكن المراد هنا هو شتمهم و إذلالهم

(٢) العصب هو القطع والسلمة هى الشجرة العظيمة ذات الشوك والمراد كناية عن تأديبهم حتى وإن كانوا بمثل أذى تلك الشجرة

(٣) الإبل الغريبة عن القطيع إذا ما وردت الماء معهم فكانت تضرب حتى تبتعد

(٤) المروة هو حجر أبيض رقيق كانوا يدقوه فيشكلوا منه ما يحتاجون فقيل يصنع منه سكاكين وما شابه وقيل يستخدم فى إشعال النار

(٥) أى إذا قررت الأمر أمضيته

(٦) يقصد تداول الإشاعات على ألسنتهم

(٧) أرامل

(٨) الباطل

ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُبِى فيء[1] ولا قوتل عدو .. وقد بلغنى رفضكم المهلب[2] وإقبالكم على مصركم[3] عاصين مخالفين .. وإنى أقسم بالله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه وأنهبت داره)

فما أن انتهى عند هذا إلا وتساقطت الحصوات من يد محمد بن عمير دون أن يدرى بها وهو الذى كان يريد أن يحصبه منذ دقائق ..

بعدها أكمل الحجاج خطبته فأمر غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك بن مروان فجعل يقرأ:

(بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين .. سلام عليكم .. فإنى أحمد إليكم الله)

فسكت الناس .. فقال الحجاج للغلام :

(إقطع)

(١) الفيء هو كل ما حصل عليه المسلمون من ممتلكات الحربيين بدون قتال مثل الجزية والخراج وما شابه

(٢) يعنى المهلب بن أبى صفرة قائد عسكر الأمويين

(٣) بلدكم والمراد رفضكم الخروج للجهاد

ثم نظر إليهم وقال :

(يا عبيد العصا .. يُسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام .. أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب)

ثم قال للقارئ :

(اقرأ)

فقرأ حتى وصل إلى سلام عليكم فقال جميعهم :

(سلام الله على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته)

فتركهم ولم يكمل الرسالة ودخل قصر الإمارة وهو يقول :

(ألحقوا الناس بالمهلب .. وائتونى بالبراءات بموافاتهم .. ولا تُغلقَن أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً حتى تنقضى هذه المدة)

وبالفعل تركوا الجسر مفتوحاً ينتظر المبادرين بالإلتحاق بجيش المهلب فالتحق من التحق وتأخر من تأخر فلما كان اليوم الثالث سمع الحجاج تكبيراً فى السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال :

(يا أهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق .. إنى سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذى يراد به وجه الله ولكنه التكبير

الذى يراد به الترهيــب .. وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف[1] .. يا بنى اللكيعة[2] وعبيد العصا وأبناء الأيامى ألا يربع رجل منكم على ظلعة[3] ويُحســن حقن دمه ويعرِف موضع قدمه .. فأقســم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها)

* * *

انظر للاستزادة :

(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ٣٧٥/٤ – ص ٦٠٤

(*) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ٢٠٢ : ٢٠٥

(*) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ٧ : ٩

(١) العجاجة هم رعاع الناس وغوغائهم والقصف هو شدة الصوت فكأنما أراد أن يقول لهم أن هذا ما هو إلا صوت رعاعكم

(٢) اللكيعة من اللكع وهو اللؤم والحمق ويقال : رجل فيه لكاعة

(٣) الظلع هو العَرَج والمراد ألا يظهر أحدكم عرجه وقد يكونوا ادعوا العرج حتى لا يخرجوا مع جيش المهلب

بعدها جاء له شيخاً كبيراً يرعش وقال له :

(أيها الأمير .. إنى من الضعف على ما ترى .. ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى .. أفتقبله بدلاً منى ؟)

فقال الحجاج :

(نفعل أيها الشيخ)

فلما ولى قال له عُنْبُسة بن سعيد بن العاص :

(أتدرى من هذا أيها الأمير ؟)

قال :

(لا)

فقال :

(هذا عُمير بن ضابئ البُرْجُمى الذى قال أبوه فى عثمان :

هممت ولم أفعل وليتنى .. تركت على عثمان تبكى حلائله)

و عمـير هذا دخل على عثمان بن عفـان رضى الله عنه بعد مقتله فلطم وجهه ووطىء صدره فكسر ضلعين من أضلاعه .. فقال الحجاج:

(ردوه)

فلما ردوه قال الحجاج :

(أيهـا الشـيخ .. هلا بعثـت إلى أمير المؤمنين عثمـان بن عفان رحمه الله تعالى بديلاً يوم الدار ؟ .. إن فى قتلك أيها الشيخ لصلاحاً للمسلمين .. يا حرسى .. اضربن عنقه)

و كان سـبب ذلك أن والد عمير وكان يدعـى ضابىء بن الحارث البرجمى وجـب عليه حبس أيام الخليفة عثمان لأنه اسـتعار كلباً مـن قوم فأعاروه إياه ثم طلبوه منه وكان فحاشـاً فرمى أمهم بالكلب وقال :

(فأمكم لا تتركوها وكلبكم .. فإن عقوق الوالدات كبير)

فاشـتكوه لعثمان رضى الله عنه فوجب عليه الحبس وحين جيء به شـد سكيناً فى سـاقه ليقتل بها عثمان رحمه الله لكنهم أمسكوه وأحسنوا أدبه وفى تلك الوقعة قال :

(هممت ولم أفعل وليتنى .. تركت على عثمان تبكى حلائله)[1]

ثم أمر منادياً فنادى :

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٣٤

(ألا إن عُمــير بن ضابئ أتى بعــد ثلاثة وكان سمع النداء فأمرنا بقتله .. ألا إن ذمة الله بريئة ممن لم يأت الليلة من جند المهلب)

فخرج الناس فازدحموا على الجســر حتى وصلوا إلى المهلب وكان فى رامهرمز فلما رآهم قال :

(قدم العراق اليوم رجل ذكر .. اليوم قوتل العدو)

* * *

و كان الحجــاج هو أول من عاقب بالقتل على التخلف عن الثغور إذ كانــت العقوبة فــى العراق على عهد الخلفاء الراشــدين أن تنزع عمامة الرجل ويشــهر أمره للنــاس فيعرفه العامــة .. ولما ولى أمر العراق مصعب بن الزبير زاد على ما ســبق حلق الرؤوس واللحى .. ولما ولى أمره بشــر بن مروان زاد على ما ســبق بأن يرفع الرجل عن الأرض ويُسَّــمر فى حائط فيدق فى كفيه مسماران فربما مات منهما وربما خرق المســمار كفه ونجى .. فلمــا ولى أمر العراق الحجاج بن يوسف الثقفى قال :

(هذا لعب .. اضربوا عنق من يخل مكانه فى الثغر)

* * *

الحجاج والصحابى أنس بن مالك

بعد أن أنهى الحجاج أمر الكوفة أراد أن يحشد المزيد من الجنود لدعم جيش المهلب بن أبى صفرة فى حربه ضد الخوارج فتحرك إلى البصرة وخطب فى الناس خطبة لا تقل قسوة عن سابقتها حيث قال لهم :

(أيها الناس .. من أعياه داؤه فعندى دواؤه .. ومن استطال أجله فعلى أن أعجله .. ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله .. ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه .. إن للشيطان طيفاً وللسلطان سيفاً فمن سقُمت سريرته صحت عقوبته .. ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه .. ومن لم تسعه العافية لم تضِق عنه الهلكة .. ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه .. إنى أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو فإنما أفسدكم ترنيق[1] ولاتكم .. ومن استرخى لَبَبُه ساء أدبه[2] .. إن الحزم والعزم سلبانى سوطى وأبدلانى به سيفى فقائمه فى يدى .. ونَجاده[3] فى عنقى .. وذُبَابُه[4] قلادة لمن عصانى .. والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب

(١) ضعف

(٢) اللبب هو ما يشد فى صدر الدابة ليمنع تأخر الرحل والسرج والمراد أن الهوادة واللين أفسد الرعية

(٣) حمالته

(٤) حده

من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه)[1]

ثم أمرهم بالإلتحاق بجيش المهلب فكان منهم مثل ما كان من أهل الكوفة إلا أن فى تلك الفترة حدثت أولى الإحتجاجات على سياسة الحجاج حين نزل مكان يسمى رستقباذ فأنكر زيادة عطايا الجنود[2] التى كان قد أقرها مصعب بن الزبير فاعترض عليه عبد الله بن الجارود وتحول الإعتراض تدريجياً إلى تمرد – سنأتى على ذكره بالتفصيل لاحقاً – شارك فيه ابن الصحابى أنس بن مالك فظن الحجاج أن لأنس رضى الله عنه يد فى هذا وأنه مشترك فيه فقال :

(ألا أرى أنساً يُعين علىّ)

فدخل البصرة وأخذ ماله فجاءه أنس بن مالك يريد أن يفهم لماذا حدث هذا فعاجله الحجاج بقوله :

(لا مرحباً ولا أهلاً بك يا ابن الخبيثة .. شيخ ضلالة جوال فى الفتن .. مرة مع أبى تراب[3] ومرة مع بن الزبير ومرة مع ابن الجارود .. أما والله لأجردنك جرد القضيب ولأعصبنك عصب السلمة ولأقلعنك قلع الصمغة)

(١) جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة لأحمد زكى صفوت – الجزء الثانى – ص ٢٧٨

(٢) نفقاتهم ومرتباتهم

(٣) إحدى كُنَى على بن ابى طالب رضى الله عنه

فقال أنس :

(من يعنى الأمير ؟)

و لم يتصــور رضى الله عنه أن الحجــاج يقصده هو بهذا الحديث فقال الحجاج :

(إياك أعنى أصم الله صداك[1])

فقال :

(إنــا لله وإنا إليه راجعــون .. والله لولا الصبية الصغار ما باليت أى قتلة قتلت ولا اى ميتة مت)

ثــم خرج من عنده حزيناً وقرر أن يكتب إلى عبد الملك يشــكو له الحجاج وما فعله معه فكتب :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين مــن أنس بن مالــك .. أما بعد .. فإن الحجاج قال لى هجراً وأسمعنى نكراً ولم أكن لذلك اهلاً فخذ لى على يديه فإنى امت بخدمتى رسول الله ﷺ وصحبتى إياه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)

فغضــب عبد الملك بن مروان أشــد الغضب علــى الحجاج كونه لم

(١) سمعك

يحفـظ مقام أنس بـــن مالك وبعث إلى إسماعيل بـــن عبيد الله بن أبى المهاجر وكان صديقاً للحجاج فقال له :

(دونـــك كتابى هذيـــن فخذهما وأركب البريـــد إلى العراق وأبدأ بأنس بن مالك صاحب رســـول الله ﷺ فادفع كتابى إليه وأبلغه منى الســـلام وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أَمَتَك)

و جاء فى كتاب عبد الملك إلى أنس رضى الله عنه :

(بســـم الله الرحمـــن الرحيم .. من عبد الملك بـــن مروان إلى أنس بن مالك خادم رســـول الله ﷺ .. أمـــا بعد .. فقد قرات ما فى كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج .. وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك فإن عاد لمثلها أكتب إلى بذلك أنزل به عقوبتى وتحسن لك معونتى والسلام)

فاستبشر أنس بالكتاب وقال :

(جزى الله أمـــير المؤمنين عنى خيراً وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة فهذا كان ظنى به والرجاء منه)

ثـــم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج فلما رآه الحجاج قال :

(مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه)

فقال إسماعيل :

(أنا والله كنت أحب لقائك فى غير ما أتيتك به)

فتغير وجه الحجاج وقال :

(ما أتيتنى به ؟)

قال :

(فارقت أمير المؤمنين وهو أشد عليك غضباً ومنك بُعداً)

فأستوى الحجاج وقد ظهر عليه آثار الخوف فرمى إسماعيل إليه بالطومار[1] وكلما قرأ الحجاج سطراً من الرسالة إزداد خوفه وتعرقه وظل ينظر إلى إسماعيل ويقول :

(يغفر الله لأمير المؤمنين)

فلما انتهى من الرسالة قال :

(قم بنا إلى أبى حمزة نعتذر إليه ونترضاه)[2]

---

(١) فرخ الورق الذى كتبت فيه الرسالة

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء السادس – ص ٢١٩ / ٢٢٠

وجاء فى كتاب عبد الملك بن مروان للحجاج :

(أمــا بعد يا ابن أم الحجاج .. فإنك عبد طمت بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك .. يا ابن المســتفرمة بعجم الزبيب لأغمرنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب .. ولأخبطنك خبطــة تــود لها أنك رجعت فى مخرجك من بطــن أمك .. أما تذكر حــال آبائك فى الطائف حيث كانــوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفــرون الآبار بأيديهم فى أوديتهم ومياههم ؟ .. أنســيت حال آبائك فى اللؤم والدناءة فى المروة والخلق ؟ .. وقد بلغ أمير المؤمنين الــذى كان منــك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداماً .. وأظنك أردت أن تســبر ما عند أمير المؤمنين فى أمره فتعلم إنكاره ذلك وإغضاءه عنك فإن ســوغك ما كان منك مضيت عليه قدماً[1] فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين[2] أصك الرجلين[3] ممســوح الجاعرتين[4] .. ولولا أن أمــير المؤمنين يظــن أن الكاتب أكثر فى الكتابة عن الشــيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأرســل من يســحبك ظهراً لبطن حتى يأتى بك أنســاً فيحكم فيك .. فأكرم أنساً وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته رسول

(١) أى تختبرنى فى أمره فإن تغاضيت عنك زدت فى أذيته

(٢) ضيق العينين وكانت عيون الحجاج ضيقة

(٣) من التصقت أقدامه ببعضهما فوجد صعوبة فى المشى

(٤) الجاعرة هو حرف الورك المشرف على الفخذ والمقصود هنا هو استقامة وركيه كناية عن إهانته

الله ﷺ ولا تقصرن فى شـيء من حوائجه .. ولا يبلغن أمير المؤمنين عنـك خلاف ما تقـدم فيه إليك من أمر أنس وبـره وإكرامه فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ويشمت بك عدوك .. والقه فى منزله متنصلاً إليه وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شـاء الله والسلام)

فخـرج الحجاج من قصر الإمارة يهـرول إلى أنس بن مالك رضى الله عنه حتى اجتمع به واعتذر إليه فقال له أنس رضى الله عنه :

(ما شـكوت حتى بلغ منى الجهد .. وحتى زعمت أننا الأشرار وقد سمانا الله جل وعز الأنصار .. وزعمت أننا أهل النفاق ونحن الذين تبوأوا الدار والإيمان وسـيحكم الله عز وجـل بيننا وبينك فهو أقدر على الغير لا يشـبه الحق عنده الباطل ولا الصدق الكذب .. وزعمت أنك اتخذتنى ذريعة وسـلماً على مسـاءة أهل العراق باستحلال ما حـرم الله عز وجل عليك منى ولم يكن بى عليـك قوة فوكلتك إلى الله عـز وجل وإلى أمـير المؤمنين فحفظ من حقى مـا لم تحفظه .. فوالله لو أن النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدم المسـيح عيسـى بن مريم يوماً واحداً لعرفوا من حقه ما لم تعرفه من حقى وقد خدمت رسـول الله ﷺ عشـر سـنين .. وبعد .. فإن رأينا خيراً حمدنا الله عز وجل وأثنينا بهِ وإن رأينا غير ذلك صبرنا والله المستعان)

فقال الحجاج وقد أفحمه رد أنس :

(أردت أن يعلم أهل العراق إذ كان من ابنك ما كان وإذ بلغت منك ما بلغت أنى إليهم بالعقوبة أسع)[1]

* * *

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى – الجزء السابع – ص ٢٩٥ : ٢٩٧